المنهج الدراسي في العصرين: الجاهلي وصدرالإسلام

الدكتورة راحيلة خالد القريشى *   الدكتورعبد المجيد البغدادى **

إن التعليم له دور بارز في تطوير اجتماعي من النواحي المختلفة مثل الثقافة والسياسة والاقتصاد والاجتماع - ولا بدّ لكل أمّة تريد أن تنهض في حاضرها أن تزيّن أفرادها به - فإنّ الأمم الّتي تستضئ بنور العلم تفلح فيما تحاول، وتستغلب على الصعاب الّتي تعترض سبيلها - فنرى أن أوّل نداء إلهي يشتمل على فضيلة العلم، و أنّ القول الأوّل من أقوال الله تعالى الّذى أشار إلى العلم وجعله السلاح على دفع الأميّة وجعل العلم اللبنة الأولى في بناء المجتمع [1] وتوجد في القرآن الكريم الآيات الكثيرة الّتي تحثّ على حصول العلم والاشتغال به، وأقوال النّبىﷺ أيضاً تشير إلى عظمة العلم والعلماء ، ويظهر بهذه الأقوال أنّ الاشتغال بالعلم هو أفضل من نوافل العبادات البدنية من صلاة وصيام و تسبيح و دعاء[2] فروى أن الرسول ﷺ مرّ بمجلس في مسجده فقال: كلاهما خير، أحدهما أفضل من صاحبه، أمّا هؤلاء فيدعون الله و يرغبون إليه فإن شاء أعطاهم و إن شاء منعهم وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه والعلم ويعلّمون الجاهل، فهم أفضل وإنّما بعثت معلّما، قال ثمّ جلس فيهم [3].

والعلم في الإسلام ليس خاصاً بعلم الشرائع والأحكام من حلال و حرام وانّما العلم في نظره هو كلّ ما يفيد الإنسان في قيام المهنة العظمى الّتي ألقيت على كاهله منذ خلقه وجعله الخليفة في الأرض - وإذا يأمر القرآن النبى ﷺ بالقراء ة في الوحي الاوّل ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ يقرن ذلك باسم ربه ويختار لفظ الربّ دون بقيّة الألفاظ الدالة على الذات الإلهية من مثل "الله" و"الخالق " و"البارئ" ونحوها، قيل[4] وفي هذا الاقتران اللفظي إشعار بأن القراء ة الّتي أمر بها النّبى "إنّما هي للتربية والتعليم وليست للتعليم فحسب" [5].

وإن للتعليم الإسلامي الطرق الخاصة الّتي تميّز بها وسار على نهجها المعلّمون وتطوّرت طرق التعليم بمرور العصور، وفي الحقيقة طرق التعليم ووسائله مرتبطة مباشرةً بفضل زيادة اهتمام النّاس بالعلم والعلماء وكثرة طلّاب العلم وتعدد وسائل التعليم والتعلّم - والتاريخ العربي يحدّثنا عن

---

* الأستاذه المشاركة، رئيسة قسم اللغة العربية، الجامعة الاسلامية، بهاولفور، باكستان.

** المحاضر بقسم اللغة العربية، جامعة العلامة إقبال المفتوحة، إسلام آباد، باكستان.

اشتغال العرب بالتعليم والتعلّم منذ قديم ، وتوجد في المصادر الأدبية واالتاريخية إشارات إلى المعلّمين الّذين اشتهروا في العصور القديمة ، وكانت لهم مكانة ممتازة في المجتمع ، قد ذكر ابن حبيب (6) أشراف المعلمين ، منهم ؛ بشربن عبدالملك السكوني أخو أكبر صاحب دومة الجندل، وسفيان بن أمية بن عبد شمس ، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة ، وغيلان بن سلمة بن معشب الثقفي وهو مخضرم ، وعمرو بن زراة بن عدى بن زيد(كان يسمّى بالكاتب).

طرق التعليم

ويبدو بالروايات أنّهم كانوا يعلّمون أبناءهم وأن العارفين والمتعلّمين كانوا يتمتعون بمكانة ممتازة كما كان (للكتّاب) مكانة مرموقة أيضاً ، ولكن طريقة التعليم كانت غير معروفة فيذهب الدكتور جواد على إلى قوله: "لم نعثر على أىّ نصّ جاهلي فيه شيء عن التدريس وعن مواد الدراسة عند الجاهليين نستنبط منه مادة عن الدارسة عند عرب الجاهلية"(7).

وفي المصادر القديمة بعض الروايات تخبرنا أن عدداً من الأدباء أو غيرهم كانوا يعلّمون أبناءهم بطريقة خاصّة وكذلك تعلّموا الكتابة، فجاء الإسلام و في مكّة سبعة عشر رجلاً يعرفون الكتابة منهم: عمر بن الخطّاب، وعلى بن أبى طالب، وعثمان بن عفّان، وطلحة، وزبير، وأبو عبيدة، و ابان بن سعيد، وخالد بن سعيد وغيرهم رضى الله عنهم و من النساء :الشفاء بنت عبدالله العدوية وعائشة بنت سعد الّتي روي عنها أنّها تعلّمت عن أبيها(8) فكانت لمكّة المكرّمة أهميةً خاصةً عند العرب ؛ فكانت مركز التجارة، والتجارة تحتاج إلى الكتابة - فعرفت في العصر الجاهلي طريقة التعليم الخاص والطريقة المألوفة فإنّها تتعلّق بتعليم الكتابة - وكانت توجد عندهم أماكن للتعليم سميت (الكُتّاب) وقد جاء ذكر ذلك في "لسان العرب" في مادة "كتب" فقال ابن منظور: المكتب (بضم الميم وكسر التاء) موضع التعليم ، والمكتب المعلم، والكتاب، الصبيان - ومنه قيل : كتب الكتاب؛ لأ نّه يجمع حرفا إلى حرف"(9).

وروي أن حماداً هو أوّل من كتب في بني أيوب وعلّمته أمّه الكتابة في بيت أبيه فطلب حتى صار كاتب الملك النعمان الأكبر وعلّم إبنه زيداً (10) وذكر أن عبدالله بن جدعان علّم حرب بن أميّة ، وبشر بن عبدالملك علّم أبا سفيان وكان تعلّمه من مرمربن مرارة وأسلم بن سدرة ، ثم تعلّمه عمر بن الخطاب و معاوية رضى الله عنهما وجماعة من قريش(11).

فقد جا ء في ترجمة "عدى بن زيد " أنّه طرحه أبوه في الكتاب حتّى إذا حذق أرسله المرزبان مع ابنه شاهان مرد إليه كتابَ الفارسية ، فكان يختلف مع ابنه ويتعلّم الكتابة والكلام بالفارسيّة (12) وروي عن خالد بن الوليد أنّه مرّبعين التمر أثناء سفر من أسفاره و وجد فى كنيسة صبياناً يتعلّمون الكتابة في قرية من قُراها، تقال لها: النقيرة ، وفيهم حمران مولى عثمان بن عفّان(13) استنبط العلماء بهذه الروايات أن التعلّم عندهم، هو أنّهم كانوا يعلّمون الهجائية أوّلاً، ثمّ يتعلّمون بعد ذلك كلّ شيء وورثوا هذه الطريقة من الأوائل - فأشار إليه أبو نواس في بيت من أبياته الشعرية فقال:

شادن يكتب في اللوح بتعليم هجاه   كلّما خط أبا جاد قراه فمحاه[14]

وقد ذكر الدكتور "جواد على"الموارد النصرانيّة (وخاصّة نصارى العراق) عن التّربية والتّعليم في العصر الجاهلي، والمواد الّتي كانوا يعلّمونها طلّابهم في تلك المدارس يستنتج من خلالها : "بأنّ مدارس الأنبار والحيرة والقرى العربيّة الأخرى، لا بدّ أن تكون قد سارت وفقاً لمنهج أهل العراق في تعليم أبناءهم في ذلك الوقت"[15]. والمنهج التعليمي في تلك العصور القديمة يقوم على مبادى ء القراءة والكتابة وإجادة الخطّ وشيء من الحساب والأمثال والحِكَم ومبادى الدّين وهي المواد الاساسيّة الّتي كانت تُعلّم في الكتاتيب والمدارس[16].

وكان طريقهم في تعليم الخطّ للأطفال هو أن يخطّ المعلّم أو خليفته أو من يقوم مقامه من التلاميذ المتقدّمين سطراً من الحِكَم والأمثال أو من الكتب السماوية لينقّش سطوراً مثلها على لوح يحاول الإجادة جهدا إمكانه في كتابتها لتقوية يده على الخطّ [17]، أمّا الفرق بين المدرّسين والعلماء الّذين لم يتّخذوا التدريس مهنة لهم فليس عندهم حدّ فاصل في ذلك فقال الدكتور جواد علي :"لم يكن في العصور الوسطى حدّ فاصل بين العلماء المدرسين والعلماء الّذين لم يتّخذوا التدريس مهنة لهم والجميع كانوا يعملون بأجر و تطوّع لتثقيف النّاس وتعليمهم أمّا عن طريق حلقات التعليم أو بتأليف الكتب " [18]. وقال: أمّا تدريس اللغة العربية في الأنبار والحيرة الّتي درسها نصارى العراق فهو لم تتوقف على تدريس مفردات اللغة وقواعدها و أصولها ولا يعقل أن يكون المراد من العربي الكتابة والقراء ة فقط بل لا بدّ أن يعلّم معها شيء من أصول الكتابة من كيفية قطع القلم ورسم الحروف و أنواع الخطوط، ثمّ الأمثال والحِكَم وقواعد اللغة و آدابها وكان رجال الدين يسيرون عليه ويتّبعونه في مدارسهم[19].

وعرب الجاهلية عاشوا حياة خاضعةً للخرافات والأوهام فإنّهم كانوا يعبدون الأصنام و وكّلوا أمورهم إليها، وبالعموم كانوا مشغولين في الحروب بعضهم بعضاً وكانت الكهانة والعرافة معروفة عندهم، حتى ذهب بعض الباحثين إلى إنكار القراء ة والكتابة في بلاد العرب وانتشارهما ولكن بتطوّر الأحداث عند ظهور الإسلام، ثبت بأن الاستعداد لديهم كان متوافراً وهذا ممّا دعاهم إلى الإقبال الشديد على التعليم والتعلّم وانتشار القراءة والكتابة بشكل واسع. دعا الإسلام إلى حصول العلم منذ أول عهده وحثّ على طلبه وبشر برفع من قدر العلماء وطلّاب العلم و كانت الآية الأولى باعثة للمؤمنين على القراءة وطلب العلم كما كان هدف من أهداف النبى ﷺ العمل على نشر علم منذ أوّل تأسيس الدولة الإسلامية. وأنه فتح أبواب التعليم للعرب الأميّين[20]وفي الحقيقة كانت حياة النبى ﷺ كلّها دعوةً إلى التعليم وتعلّمه وتدوينه ونشره والانتفاع به. ولهذا رأينا أن عدد الكتّاب الّذى لم يكن يزيد على بضعة عشر نفراً ، أصبح يزيد بجهوده، أنه قرّر لمجموعة من أسارى قريش في معركة بدر كانوا يعرفون القراء ة والكتابة بأن يعلّم كل منهم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة نظير فدائه [21]. يلاحظ من هنا أن عملية التعليم والتعلّم أصبحت مهمّة واتّخذت فى ذلك العصر صفة جماعية ورسميّة ومنها صفة خاصة وهى قيام الاسُرى للتعليم. وكان النبى ﷺ يستخدم الّذين يعرفون القراءة لكتابة الوحى، وأن النّبى ﷺ اتّخذ المسجد مركز الدرس والتدريس، ولاشكّ فيه

أن المسجد كان حلقة التعليم في الإسلام ومركز التّوجيه الفكري والتربوي والأخلاقي والاجتماعي ومعهد العلم؛ فكانت تلقى فيها الدروس والمواعظ للرّجال والنّساء على السواء. ولم تكن المراكز العلمية في العالم الإسلامي طوال قرون عديدة سوى المساجد. ويبدو من الروايات أن التعليم كان مجّانًا في عصر صدر الإسلام ولم يأخذ الصحابة رضي الله عنهم على التعليم أجراً من أحد من المتعلّمين وقد كان عطاءهم السنوي هو الّذي كانوا يأخذونه من بيت المال و كانت تشمل مجانية التّعليم عندهم مجانية الكتاب أو مواد الدراسة، فيروى ابن قتيبة بسند عن عبدالله بن شقيق أنّه قال: "كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون بيع المصاحف ويرونه عظيماً وكانوا يكرهون أن يأخذ المعلّم على تعلّم العلم شيئاً"[22] وأن كراهتهم هذه مبعثها، نهى النّبى ﷺ عن أخذ الأجر على التّعليم من جهة وخوفهم من جهة أخرى من ذهاب الثواب الّذى يناله المعلّم - وقرّر النّبى ﷺ الكتابة واجباً لعملية التعليم وحثّ المسلمين على تعلّمها، فقال: "قيّدوا العلم بالكتاب"[23]. وسار أصحاب النّبىﷺ على نهجه العلمي القديم بعده فعنوا بتدوين العلم؛ روى أن "عثمان بن عفان رضى الله عنه قال: "قيّدوا العلم" فسأله من سمعه : وما تقييده؟ فقال: تعلّموه وعلّموه واستنسخوه، فانّه يوشك أن يذهب العلماء ويبقى القرّاء لا تجاوز قراءة أحدهم تراقيه[24].وكذلك حثّ الرّسول ﷺ على قراءة القرآن الكريم وفي الحقيقة كان لقراء ته أثراً بالغاً في التحفيظ على تعليم القراءة والكتابة في صدر الإسلام وفى بقيّة العصور بعده. كما كانت الحاجة إلى كتابة القرآن (ونسخه بنسخ كافية تفيد عدداً كبيراً من المسلمين) وسيلة من وسائل تحفيز على محو الأمية وسببا من أسباب انتشار العلم. فكانت الصحابة الكرام رضي الله عنهم يعنون بتحسين الخط وتطويره [25]، وكان على بن أبى طالب يؤكد لكاتبه عبيد الله بن أبى رافع بوضوح الخطّ وجماله وتنظيمه فيقول: ألق دواتك وأطل جلفة قلمك، وفرج بين السطور، وقرمط بين الحروف، فإنّ ذلك أجدر بصباحة الخطّ[26]، فقوله يدلّ على أهميّة علم بأصول الخطّ ورسم الحروف. أمّا أسلوب النبى ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم فى تعليم الصبيان فهو أسلوب بعيد عن الملل؛ فكانوا يتركون الصبي في بداية عمره قليلاً للعب حتّى تتوفّر همته على القراءة و يشبع حاجته منه قبل أن يتلقّى العلم[27]. وراعى النّبى ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أن يكون سنّ الطفل مناسباً للمعلومات الّتى سيتعلّمها، فذهب عمر من تعليم القرآن خمس آيات [28].

ولم تكن طريقة التعليم خالية من الملل فحسب في صدر الإسلام بل كانت بعيدة عن القسوة والعنف أيضاً أما أسلوب النبى ﷺ وأصحابه في تعليم الصبيان فهو أسلوب بعيد عن الملل- وكان النبى ﷺ يرى العنف منافياً للتعليم ومضاداً له فقال:

"علّموا ولا تعنفوا ، فانّ المعلّم خير من المعنّف"[29].

وقال يوصى المعلّم: "عليك بالرّفق ، فانّ الرّفق لا يكون فى شىء الّا زانه ..." [30]. وكان النبى ﷺ (وهوالمعلّم الاوّل) يقول: "ان الله لم يبعثنى معنتاً ولا متعنتاً ، ولكن بعثنى معلماً ميسراً "[31].

إنّ النّبى ﷺ رسم للمعلّمين أساليب التعليم وطرقه من ناحية وبيّن الآداب الّتى يلتزم بها المتعلّم في مجالس الدرس من ناحية أخرى. فاتّبع المسلمون هذا المنهج بعده، يقول على بن أبى طالب مخاطباً بعض تلاميذه: "من حقّ العالم عليك إذا أتيته، أن تسلّم على القوم عامّة وتخصّه بالتحيّة وأن تجلس قدامه ولا تشير بيدك ولا تغمز بعينك ولا تقول: قال فلان، خلافاً لقوله ولاتغتاب عنده أحدا، ولا تسار فى مجلسه ولا تأخذ بثوبه ولا تلحّ عليه إذا كسل ولا تغرص (لا تضجر) من صحبته لك فانّما هو بمنزلة النخلة، لايزال يسقط عليك منها شيء"[32]. والجدير بالذكر أن النبى ﷺ اهتمّ بتعليم المرأة وأكّد أن تتزيّن المسلمات بحلية العلم(وأن تعليم المرأة ضرورى والمجتمع يتقاضى لتلك الضرورة لأن المرأة نصف المجتمع). فكان يريد أن تتعلم المسلمات القراءة والكتابة وأن يتعلّمن الأحكام الشرعية والمعانى الأخلاقية؛ فعهد إلى بعض النساء بتعليم الأميّات من أهله وأسرته الكتابة والقرأة من خيرة النساء المسلمات كما ذكرنا، هى الشفاء بنت عبدالله بن عبد شمس لتعلّم السيدة حفصة الكتابة [33] وجعل الرّجل أن يتولّى تعليم من معه فى الدار من فتاة وأن يتولّى تعليمها وتربيتها ليجعلها عضواً نافعاً للأسرة والمجتمع.

ومن الروايات التي تدلّ على اهتمام الرّسول ﷺ بتعليم المرأة: فقد ورد عنه ما يشير إلى أن تعليم المرأة القرآن قد يكون بدلاً من مهرها لمن عدم المال [34] وخصّ النّبى ﷺ لهم أوقات معينة جعلها فرصة لتعليمهنّ، بعد أن تبيّن له أنّهن لايستطعن أن يسمعن كلامه ودرسه وهنّ بعيدات عنه بالجلوس بعد صفوف الرجال[35] وأعطاهنّ فرصة طيبة للحضور فى المجالس العلميّة - فالنّبى ﷺ بيّن لنا طرق التعليم وأساليبه لتعليم الصبيان والفتيان والنساء على السواء، وجعل الاشتغال بالعلم فريضة لكلّ مسلمة كما قرّره فريضة لكلّ مسلم وأرفع قدر المعلّم والمتعلّم. والصحابة الكرام رضي الله عنهم والمسلمون بعدهم تبعوا نهجه فى الدرس والتدريس. وكما قلنا إن المساجد كانت مراكز العلم فى العالم الإسلامي في صدر الإسلام و بعده لمدة طويلة، فأصبح التراث الإسلامي مرتبطاً بها، نشأت فيها العلوم المختلفة وقامت المحاورات والمناظرات.

وكانت طريقة التدريس في المساجد في القرون الماضية هي أن الشيخ أو الأستاذ كان يجلس إلى أحد أعمدة المسجد مستنداً إليه ومتّجها إلى القبلة[36] وكان الشيخ يجلس على خشبة صغيرة أو على منصة (وكانت تعرف هذه بـ (السدة) متكئاً على العمود أو على الحائط والمستمعون كانوا يجلسون بحسب ترتيب معين، لكلّ طبقة مكان معيّن فى هذه الحلقة ويكون الأستاذ فى أبرز نقطة فى محيطها، وكان يترك فى الحلقة فراغ ليجلس فيه من يحب أن يستمع إلى الدرس من الداخلين[37] وكان الشيخ أو المعلّم يفتتح الدرس بالبسملة والحمد لله وبالصلاة والتسليم على الرسول ﷺ ليحثّ الطلاب على طلب العلم والمعرفة[38]، ثمّ يملى ما عنده من المادّة العلميّة ويستخدم فى املاء مساعداً يسمى "حليا" يردد وراءه ما يقوله حتى يبلغ السامعين صحيحاً سليماً من شوائب الخطأ والتحريف - ولما انتهى الدرس كان يقرأ الفاتحة ويعين الموضوع للدرس المقبل [39].

أمّا موضوعات الدرس الّتى يعلّمها المدرّس، فكان يعظ النّاس بالعموم بما يعرف وما دام لا يتقاضى من الدولة أجراً على عمله، فقد ترك له أن يدرس ماشاء فى الوقت الّذى يشاء(40). ذكر الجاحظ فى "البيان والتبيين" أن جعفر بن الحسن أوّل من اتّخذ حلقة فى مسجد البصرة لقراءة القرآن الكريم(41). وكذلك كان حلقة الحسن البصرى فيها قامت المناقشات حول كثير من المسائل الدينية الكثيرة بين واصل بن العطاء رئيس المعتزلة وبين غيره من الفقهاء فى نفس المسجد. ونشطت زوايا الدّرس وحلقات العلم فى المسجد الأموى بدمشق وكان للخطيب البغدادى حلقة كبيرة يجتمع فيها النّاس بكرة كلّ يوم فيقرأ لهم، وكان اذا قرأ الحديث سُمع صوته فى آخر الجامع(42). ذكر ابن جبير يصف الحلقات الّتى انعقدت فى الجامع الأموى بدمشق (43):"ظلّت حلقات الدّروس فى ازدياد يتزعمها أئمّة الفقهاء والقرّاء وأهل الأدب والحكمة، يجتمع فيها الآلاف من الطلّاب والقرّاء والكتاب، فمنها ظهر العلماء والأدباء والشعراء والكتاب مثقفين بالثقافة العربية ومشاركين فى المناصب العليا فى الدولة ودواوين الحكومة" (44).

والجدير بالذكر أنّها كانت الرواية هي النظام الأساسى قام عليهاالتعليم الإسلامى، إن العرب اهتمّوا بالرواية وفى الحقيقة ذلك يرجع إلى طبيعة العقل العربى فعندهم قدرة فائقة على الحفظ و كانوا يحفظون آلافاً من الأبيات والأراجيز والأمثال (الحِكَم) والأحاديث ويروون كل ذلك، فأصبحت الرواية وسيلة من وسائل نشر الثّقافة. ونرى أنّه كان لكلّ شاعر فى العصر الجاهلى راوية يحفظ شعره ويروى عنه، وكثيرا مايكون الراوى نفسه شاعرا (45).

وبعد أن جاء الاسلام أصبحت الرواية مادة صالحة لحفظ ورواية الأحاديث النبوية، وكان الاعتماد يقوم على الرواية فيما سمعه أصحاب النبى ﷺ من أحكام وإرشادات أو غيرها ثم شاعت الرواية فى العلوم الإسلامية الأخرى من الفقه وعلم الكلام وغير هما وأصبح الإسناد من لوازمها(46) وكان السماع والحفظ فى (العصر الجاهلى) معروفاً شائعا وأساس الرواية لعدم انتشار الكتابة والقراءة قيل: "ومادامت الرواية موقوفة فى صدر الإسلام (القرن الأول) عليهما، ورغم انتشار الكتابة فيما بعد ظلّ السماع وسيلة قائمة من وسائل أخذ العلم - فكانت المؤلّفات العلمية تروى عن صاحبها بالسماع منه وكان العرب يفاخرون بكثرة الحفظ وسرعته، فيقال فى كتاب التراجم والأخبار: فلان يحفظ كذا من الشعر وكذا من الأمثال فيقال فى كتب التراجم والأخبار: فلان يحفظ كذا من الشعر وكذا من الأمثال وفلان أحفظ أنساب العرب وغيرها(47)، وتوجد فى المخطوطات العربية كثيراً من عبارات السماع مثل: سماع الحافظ أبى الفضل محمد بن ناصر اسلامى المكتوب بخطه وكان من عادة من يسمع شيئا عن أستاذه دوّن ماسمعه مسجّلاً اسم استاذه واسمه وتاريخ ذلك ويسمّى "سماعاً" (48) ولأنّه كان تعليم الهجاء والخطّ أساس العملية التعليمية ومن أبرز الطرق الّتى اعتاد عليها معظم المسلمين والشيوخ فى حلقاتم ومدارسهم فكان على الطلبة تدوين ما يُتلى عليهم ومذاكرته فى ما بعد خاصةً اذا كان المدرّس يلقى من محفوظات(49).

وشاعت طريقة الإملاء وكان فى شيوعها حظّ انتشار الكتابة وأدواتها مثل القلم، والورق، والحبر وغيرها، وتحوّل طريقة التعلّم من السماع والحفظ الى الإملاء تشير إلى مرحلة التطوّر فى طرق التعليم. والفرق بينهما أنّ فى طريقة السماع لا يهتمّ الطالب الشيخ بكتابة ما يقوله الشيخ أو المعلّم فى ذلك الموضوع فانّه يتحدّث والتلميذ يسمع. أمّا فى الإملاء فكان الدّرس يُلقى بطيئاً فقرةً فقرة أو حديثاً مع اتّصال السند. رُوى "بعد انتهاء إملاء الحديث أو فقرة مستقلةً كان الأستاذ يشرح ماغمض من الأمالى فاذا اكتملت أمالى الشيخ فى ذلك الموضوع فانّه ربما قرأ الأمالى أو قُرئت عليه لتصحيحها وكانت مجموعة المحاضرات الّتى تُلقى بطريقة الإملاء تُسمّى "الأمالى" ومنها تكوّنت المخطوطات الّتى طبع الكثير منها فأصبحت كتباً شهيرة[50] (ومايزال المخطوط منها حتى الأن) ومن المخطوطات المطبوعة "الأمالى" لأبى علي القالي الّتى أملأها فى جامع الزهراء بقرطبة [51].

وكانت القراءة أيضاً طريقة من طرق التعليم القديمة ووسيلة من وسائل الدّرس والتّدريس. وفى هذه الطريقة كان الدّرس يُلقى من كتاب يمكن الحصول عليه. "ورُوى أنّ هذه الطريقة كانت هى أن يقوم أحد من الطلبة ويقرأ الكتاب يختاره الأستاذ وحده أو مع أحد من زملائه، كان يقوم الأستاذ بعد ذلك يشرح الغوامض من الفقرات أو الكلمات والجمل ويعطى فكرة عامة من موضوع الدرس، ثم يبدأ قراءته من حين آخر بالتعليق على الفقرات وممارستها مع غيرها. قيل: انّها كانت هذه الطريقة نتيجة لقلّة الاجتهاد وضعف حركة الابتكار فأخذت تحلّ محلّ الإملاء بالتدريج وأخذ الإملاء يختفى شيئا فشيئا من التعليم الإسلامي فى القرن الرابع الهجرى[52]، [53].

والأهمّ فى هذه الطريقة هو اختيار الكتب الموزونة؛ فقال أحمد شلبى:"ومن نتائج هذه الطريقة "تقرير" كتب معيّنة على الطلّاب يدرّسونها بمعونة الأستاذ"[54]. وظلّت طرق أخرى معروفة متداولة فى تاريخ التّعليم الإسلامى كانت منها السؤال والمناقشة والمذاكرة وأخيراً الرحلات فى طلب العلم، وهذه الوسائل مرتبطة ارتباطاً مباشراً بعملية التدريس، إن السؤال والمناقشة لها أهميّة خاصة لاستكمال عملية التّعليم ولإعانة الطالب على الفهم ولذلك نرى أن هذه الطريقة إحدى الطرق الرئيسيّة الّتى تستخدم فى تدريس العلوم حتى فى عصرنا الحاضر، قيل: وتبرز أهميّة هذه الوسيلة من خلال إشراك الطلبة فى مناقشة ما يتعلّمونه، كما عُدّ الحياء فى السؤال من آفات العلم[55]. وكانت للمناقشة والسؤال بين الطلّاب وأستاذهم آداباً خاصة. وقد أشار القرطبى فى فصل من أبواب آداب العالم والمتعلم الى أهمية المناظرة، ورُوى عن الخليل بن أحمد الفراهيدى أنّه قال :"اجعل تعليمك دراسة لك واجعل مناظرة العلم تنبيهاً بما ليس عندك"[56].

ولا شكّ فيه أن الطلبة يكونون أكثر استمتاعاً فى الدّرس نتيجة المشاركة فى المناقشة فانّ هذه الطريقة تعطى فرصاً للتفكير بعمق ويقدرون بها على التحليل والاستدلال والاستنتاج، وتساعد هذه الطريقة فى الوقت نفسه المدرّس على معرفة مدى فهم الطلّاب لما درسوه من مواد فانّه كان لكلّ طالب حق فى أن يسأل لاستيضاح ماصعب فهمه.

والأسلوب فى تنظيم المناقشة هو أن تدوّن الأسئلة فى رقاع وتقدّم الى المحاضر ثمّ يبدأ بالإجابة عمّا ورد فيه. وهذا هو ما يتّبع فى جامعاتنا أعقاب المحاضرات والنّدوات العامّة وتبرز به حريّة الفكر وديمقراطية التعليم الإسلامى وهذا الأسلوب يشير الى اتّساع أفق التعليم والثقافة فى المسلمين بالعموم والأدب بالخصوص.

ومنها "المناظرة" الّتى أعانت على بثّ الروح العلميّة فى معناها الحقيقى وكانت المناظرات بالعموم تُعتقد بين الأساتذة والعلماء، وكان لها فضل كبير فى توسيع أفق التفكير وتنمية العقول. وهذه الطريقة من أقدم وسائل العلم عند المسلمين وفى القرن الثانى الهجرى اعتمد عليه أئمة المذاهب والفقهاء لاستنباط حقائق الفقه واستخراج أصوله. فنرى التاريخ حافلاً بذكر عدد كثير من المناظرات الّتى وقعت بين المعتزلة وأهل السّنّة وأصحاب الأديان الأخرى؛ فظلّت المناظرة عاملا قويّا من عوامل النشاط الفكرى الإسلامي(57).

نتائج البحث

فهذه هى الطرق الّتى تشير اليها الروايات التاريخيّة، ويبدوبها أنّ هذه الطّرق ظلّت شائعة معروفة فى عصور قديمة وبعدها، وأنّها متداولة حتى عصرنا الحاضر مثل القراءة والحفظ و المناقشة. وطريقة المناقشة هى أهمّ وأنفع من جميع الطّرق فى الجامعات و المعاهد العلميّة الأخرى. أمّا القراءة والإملاء والحفظ فانّها كانت معروفة فى المدارس الابتدائية والثانوية وغيرهما، ولها أهميّة خاصّة فى النّشاط العلمى(58). وكانت مراحل التّعليم فى العصر القديم فى الدول المتمدنة تُقسم إلى أربعة: التعليم الابتدائى، والثانوى، والجامعى، والدراسات العليا (59). وكان الطّلاب يُقسمون حسب مقدارهم للتحصيل العلمى إلى طبقات ثلاثة: المبتدئين، والمتوسطين، والعليا(60). وفى هذا التقسيم للمراحل الثلاث دلالة واضحة على صحة وسمو المناهج التربية الإسلامية. ولم يكن التقسيم حسب سنى عمر الطلبة بل كان ذلك بحسب مقدرتهم وكفائتهم العلميّة؛ فيضعون الطالب فى المرحلة أو الطبقة الّتى يستحقّها. ونرى أنّ هذه الطرق والمراحل متداولة معروفة فى عصرنا الحاضر ولا يجحد أحد بأهميتها فى تعليم الطّلاب وتربيّتهم؛ فإنّها أقيمت على أسس متينة من أصحاب ذوى خبرة واسعة فى تعليم الأطفال و ذوى علم راسخ للفنون والآداب المختلفة وأصحاب نظرعميق فى نفسية البنين و البنات فى تلك العصور و لا بدّ لنا أن نبذل أقصى جهودنا لتعليم أطفالنا و شبّاننا مستفيدين من تجارب أسلافنا العظماء. ولا يجوزلنا تركها أو رفضها قائلين بأنها طرق قديمة، بل تلك الأساليب القيمة هى فى الحقيقة أسس متينة للأساليب الجديدة فى تعليم الطّلاب وتربيّتهم فى مراحل التعليم المختلفة من المدارس الابتدائية إلى المدارس العلياء والكليات والجامعات والمدارس الخاصة الأخرى. ولا بدّ لنا اتباعها رغم أن نسميها بتسميات مكروهة و أن نفقد هدفنا الصحيح فى هذا المجال. ولا بدّ من التطور و الرقى فى تلك الطرق حسب مقتضيات العصور الحديثة و علينا أن نعمل لها- والله المستعان و بالله التوفيق.

الهوامش

1- لقد كانت السورة الأولى الّتى نزلت على النبى ﷺ الأمّى تحثّ على القراءة والكتابة فقال: ﴿إقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق 1-5)، وفيه تعريف وتعظيم لكلّ من علّم أو تعلّم أو أمسك القلم مدى العصور- المكتبات فى الإسلام، محمد ماهر حماده، الطبعة الاولى، بيروت، 1970م، ص: 27.

2- فقال الله عزّوجلّ : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الز مر: 10)، و﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ (آل عمران: 18)، و﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾(آل عمران: 7).

3- الدارمي,مسند الدارمي، دارالمغني للنشر والتوزيع، 366/1.

4- الغزالى ، فاتحة العلوم، القاهرة 1309هـ، ص: 19.

5- سيد قطب، التصوير الفنى فى القرآن، دار المعارف مصر: 1963، ص: 19.

6- أبو جعفر محمد بن حبيب اوس الطّائى ،كتاب المحبر، بيروت، ص: 475.

7- جواد على (الدكتور)،المفصل فى أحوال العرب قبل الاسلام، ط : 1، بيروت 1971م، 298/8. (ان يرى أنّ التد ريس والدراسة كان معروفا فى العصر الجاهلى وكانت كلمة الكتاب تستعمل للمدرسة الّتى يتعلّم فيها الأطفال القراءة والكتابة ومبادى المعرفة).

8- ابن عبد ربه، العقد الفريد، دار المعارف ، مصر، 148/4.

9- ابن منظور، لسان العرب:(كتب)، قم ، ايران 1405 هـ- 1363، 698/2، 699.

10- أبو الفرج الأصفهانى، الأغانى، تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم، مصر 1390هـ - 1958 م، 98/2.

11- القلقشندى، صبح الأعشى، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، مصر، 10/3.

12- الأغانى : 99/3.

13- الحموى،ياقوت، معجم البلدان، 301/5، وفى رواية الطبرى وُجد فى حصن عين التمر أربعين غلاما يتعلّمون الانجيل (377/3 ، دار المعارف ، مصر)

14- أبو نواس، الديوان، ت: عبدالمجيد الغزالى، بيروت 1953 م، ص: 331.

15- المفصل: 297/8-298، قيل:"وقد كان للمسيحية أثركبيرفى التربية والتعليم ودور بارز وفعّال فيهما وكانت طريقة التدريس تعتمد بالدرجة الأولى على الذاكرة والمواد الّتى كانت تعطى كلها نقلية وكانت تحمل ذاكرة الطلاب بحمل لا يطيقه أكثرهم وكان أسلوب الكنيسة العقاب؛ فكانوا

يعاقبون الأطفال بالحرمان والحبس والعقاب البدنى لايعتاد الطاعة المطلقة فى نفوسهم. (جابر عمر، المدخل فى التربية، ط : 2، بغداد 1954، ص 29).

16- نفس المصدر، ص : 298.

17- نفس المصدر.

18- نفس المصدر.

19- قيل: إن للأميّة مفهومان: الأميّة الأبجدية والأميّة الحضارية: الأمية الحضارية تتعلق بقدرة على الفهم والإدراك.(لينظر التفصيل فى "دائرة المعارف الاسلامية" مادة (أمّى) 265/2).

20- وهم لا يستطيعون أن يدفعو الفدية فرخص لهم بهذه الطريقة ، صبح الأعشى : القاهرة، 1917، 15/3. وقيل: كان زيد بن ثابت ممن علم.(ابن سعد، كتاب الطبقات الكبيرة، طبعة ليدن (1325هـ).

21- ابن قتيبة، عيون الأخبار ، دار الكتب المصرية ، القاهرة 1383هـ - 1963م، 131/1.

22- مقال الدكتور كاصد ياسر الزيدى: "محفزات محوالأميّة فى عصر صدر الاسلام " مجلّة آداب الرافدين، ص: 131.

23- الدينورى، أبو عبدالله محمد بن عليم الحكيم، الأمثال من الكتاب والسنة، ت: على محمد الجباوى ، دار النهضة ، مصر ، القاهرة ، 1975، ص: 31.

24- وكان لحسن الخطّ أثر بالغ فى إيصال العلم الى المتعلّم ببشر وتشويق، وانّه يؤدى دورا مهما فى النشاط العملى والتعليمى.

25- محمد عبده، شرح نهج البلاغة - ت: محى الدين عبدالحميد ، مطبعة الاستقامة - القاهرة (بدون سنة)

26- إبن كثير، عماد الدين اسماعيل، فضائل القرآن - دار الأندلس للطباعة والنشر بيروت 1385 هـ - 1966 م، (قيل: هذا المنهج التربوى هو ما تؤديه اليوم "رياض الأطفال" إذ يرسل اليها الصغار لإشباع هذه الحاجة شيئا من التعليم والتربية لهذه السنين المبكرة) مقال الدكتور كاصد ياسر الزيدى؛ محفزات الأميّة فى صدر الاسلام، آ داب الرافدين جامعة الموصل.

27- روى: "تعلّموا القرآ ن خمس آيات فانّ النّبى ﷺ كان أ خذه من جبريل خمس آيات" (الأشباه والنظائر فى القرآن: لمقاتل بن سليمان - ت: د - عبدالله محمد شحاتة - القاهرة 1395هـ - 1975 م ، ص: 273).

28- السيوطى، العلامّة جلال الدين، الجامع الصغير فى أحاديث البشير والنذير، المكتبة الموسسة ؛ 1394 هـ، ص: 62.

29- الإمام البخارى، الأدب المفرد، باب الخرق، شرح فضل الله الجيلانى - مطبعة سلفية - القاهرة 1378 هـ، 561/1.

30- مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، مطبعة محمد على صبيح ، القاهرة، 188/4. (فيقول أحد أصحابه: مارأيت معلّما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه ، فوالله ما قهرنى ولا ضربنى ولا شتمنى...) (صحيح مسلم، باب تحريم الكلام عند الصلاة، 70/2).

31- ابن قتيبة ، عيون الأخبار، دار الكتب المؤسسة المصرية العامّة ، القاهرة ، 1383 هـ - 1963 م ، 119/1-120.

32- إبن عبدالبر، أبو عمر يوسف بن عبدالله، الاستيعاب فى معرفة الاصحاب - تحقيق: على محمد البجاوى - مطبعة نهضة ، مصر - القاهرة (بدون سنة).

33- ابن كثير، فضائل القرآن ، ص: 65.

34- البخارى، صحيح البخارى بشرح ابن حجر "فتح البارى"، بيروت دار المعرفة، 203/1.

35- وكان بعض الشيوخ يختصون بعمود معين يجلس إليه طيلة حياته حتى يعرف العمود باسمه. (سيد مرسى أحمد، تطوّر الفكر التربوى ، ط : 3، القاهرة : 1975م، ص: 214.)

36- أحمد شلبى، تاريخ التربية الإسلامية ص: 368 وتطور الفكر التربوى ص : 215 و محمد عبدالرحيم غنيمة ، تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، المغرب 1953 م، ص:182.

37- وخاصة إذا كان الدرس فى علوم الحديث.

38- تاريخ التربية الإسلامية ص: 368 وتطوّر الفكر التربوى ص:215.

39- تاريخ التربية الإسلامية ص : 193-194.

40- الجاحظ، عمرو بن بحرعثمان، البيان والتبيين: ت: عبدالسلام هارون، الطبعة الثانية، القاهرة، 367/1.

41- ياقوت الحموى، معجم الأدباء، ت: مرجليوث، مصر 1923 م، 243/1-244.

42- ابن جبير، رحلة ابن جبير، بيروت ، 1964م، ص: 244 و ما بعد.

43- ياسين خليل، التراث العلمى العربى، بغداد 1978م، 74/1.

44- عبدالحميد الشلقانى، رواية اللغة (الرواية الأدبية فى الجاهلية)، دار المعارف مصر 1971 م -

45- محمد عبدالرحيم غنيمة، تاريخ الجامعات الكبرى، المغرب 1935م، ص: 180-181.

46- نفس المصدر: ص: 181-182.

47- نفس المصدر: ص: 182وبعدها. الرواية أساسها على الحفظ، والدراية أساسها على الفهم ولقد أعطى رجال التعليم الإسلامى "الفهم" أهميّة بالغة، فقسّموا العلم الى هذين النوعين (تاريخ الجامعات ص: 197-198).

48- ياسين خليل، التراث العلمى الغربى، بغداد 1978م، 75/1.

49- تاريخ التربية الإسلامية، ص : 360.

50- نفس المصدر: ص: 369.

51- تاريخ الجامعات الكبرى، ص: 186، وتاريخ التربية، ص: 370.

52- نفس المصدر: ص: 184.

53- تاريخ التربية، ص: 370، والتراث العلمى، 75/1.

54- تاريخ الجامعات الكبرى، ص: 201. (رأى بعض العلماء لطريقة الإملاء فائدة وأهمية كبيرة فظهرت بها شروح ومختصرات كثيرة، ووضعت المؤلفات الكثيرة فى علوم كثيرة، وهم يرون أنّ التعليم يقف على مجموعات معيّنة ولا يتجاوز إلى سواها فى هذه الطريقة، ويحصر الطالب على القراءة والحفظ فقط) .

55- القرطبى، أبو عمر يوسف بن عبدالبر النمر، جامع بيان العلم وفضله، تصحيح ومراجعة: عبد الرحمان محمد عثمان، ط : القاهرة ، 1968م ، 157/1-158.(قال النبى ﷺ : العلم خزائن، ومفتاحها السؤال، فاسئلوا، رحمكم الله؛ فإنّه يؤجر أربعة: السائل، والمجيب ، والمستمع، والمحبّ لهم). المجازات النبوية للشريف الرضى ص: 209 رقم الحديث 169.

56- تاريخ الجامعات الكبرى، ص : 204-208.

57- وقد أشار بعض العلماء الى وسيلة مهمّة من الوسائل التحصيل العلمى وهى "الرحلات لطلب العلم" فقد ذهب الطّلاب المسلمون إلى مسافات بعيدة لطلب العلم فى وقت كان السفر شاقاً، وقد حدّد ابن خلدون فصلاً فى مقدمته، بيّن فيه ضرورة الرحلات وأثرها فى كمال التعليم فقال: "فالرحلة لابدّ منها فى طلب العلم لاكتساب الفوائد وإكمال بلقاء المشائخ ومباشرة الرّجال (ابن خلدون، مقدمة ، ص: 541) (والإسلام يوكّد على حصول التعليم ولو فى البلاد الأجنبية فقال النبى ﷺ: (اطلبوا العلم ولو بالصين).

58- تاريخ التربية الإسلامية ص: 373.

59- نفس المصدر.